كيف هدمت سورة التوحيد 5000 سنة من الفلسفة

دراسة فلسفية نقدية للتصورات البشرية حول التوحيد

تأليف وتصحيح
خــلـيـــل الــكــوفـــي

١٥ ذو الحجة- ١٤٤٧
١ - ٦ - ٢٠٢٦
ميشكان- الولايات المتحدة

الفصل الأول

مقدمة في سقوط التصوّرات البشرية أمام سورة التوحيد

منذ أن بدأ الإنسان يرفع رأسه نحو السماء ويسأل: من أنا؟ ومن خلقني؟ وما هذا الوجود؟ بدأت رحلة طويلة من التخمينات والأساطير والتجارب الروحية والتأملات الفلسفية التي حاولت أن تقترب من حقيقة الإله، لكنها كلما تقدّمت خطوة ابتعدت خطوات، لأن العقل البشري مهما بلغ من الذكاء يبقى محصورًا داخل بنية الوجود المخلوق، لا يستطيع أن يتجاوز حدوده ليصف من هو خارج الحدود فكانت كل محاولة لتعريف الله انعكاسًا للإنسان نفسه، لا كشفًا عن الحقيقة الإلهية, فالمصري القديم جعل الله مشخّصًا, والبابلي جعله قوة، واليوناني جعله عقلًا، والهندي جعله وجودًا مطلقًا، والصيني جعله قانونًا، واليهودي جعله شخصًا، والمسيحي جعله ثالوثًا، والمتصوف جعله نورًا يتجلّى، والفيلسوف جعله مبدأً أول يفيض عنه الوجود، والعرفاني جعله حقيقة تتعيّن في الإنسان الكامل, وكل هذه التصوّرات مهما اختلفت لغاتها ومناهجها وطقوسها تشترك في شيء واحد: أنها تصوّرات بشرية، محكومة بحدود العقل واللغة والتجربة، لا بحدود الحقيقة الإلهية.

ثم جاءت سورة الإخلاص، لا لتضيف رأيًا جديدًا إلى سلسلة الآراء، ولا لتقدّم تصورًا آخر ينافس التصورات بل جاءت لتنسف السلسلة كلها ولتقطع الطريق على كل محاولة بشرية لتحديد الله أو تمثيله أو إدخاله في مقولات العقل. جاءت لتقول للإنسان: كل ما تخيّلته عن الله باطل، وكل ما ظننته عن الله خطأ وكل ما نسبته إلى الله من صفات بشرية أو كونية أو عقلية أو روحية هو إسقاط منك لا حقيقة, جاءت لتضع حدًا وجوديًا لا يستطيع العقل تجاوزه، حدًا يوقف الفلسفة عند بابها ويوقف العرفان عند حدّه، ويوقف الخيال عند تخومه، ويعيد تعريف التوحيد من جديد، لا بوصفه فكرة، بل بوصفه نظامًا وجوديًا صارمًا.

سورة الإخلاص ليست سورة قصيرة بل سيف، حدّه الأول "قل"، وحدّه الثاني "هو الله أحد"، وحدّه الثالث "الله الصمد"، وحدّه الرابع "لم يلد ولم يولد"، وحدّه الخامس "ولم يكن له كفوا أحد". وكل حدّ من هذه الحدود يهدم طبقة كاملة من التصورات البشرية. فـ"قل" يغلق باب التأويل البشري، و"هو" يغلق باب الإحاطة، و"الله" يغلق باب التعدد، و"أحد" يغلق باب التركيب، و"الصمد" يغلق باب التغير، و"لم يلد" يغلق باب الفيض، و"لم يولد" يغلق باب التجسد، و"ولم يكن له كفوا أحد" يغلق باب المقارنة. وهكذا تتحول السورة إلى نظام وجودي لا يسمح لأي فلسفة أو عرفان أو لاهوت أن يدخل إلى مقام الذات الإلهية.

إن كل ما بناه البشر من تصورات عن الله كان قائمًا على ثلاثة أوهام كبرى: وهم التشبيه، ووهم التمثيل، ووهم القياس, فالفيلسوف يقيس الله على العقل، والمتصوف يقيسه على النور، واللاهوتي يقيسه على الإنسان، والوثني يقيسه على الطبيعة، والميتافيزيقي يقيسه على الوجود, فجاءت سورة الإخلاص لتقول: الله لا يُقاس، لأن القياس يقتضي اشتراكًا في جنس، والله لا جنس له. والله لا يُمثّل، لأن التمثيل يقتضي مشابهة، والله لا مشابه له. والله لا يُشبّه، لأن التشبيه يقتضي جهة، والله لا جهة له. فانهارت كل البنى الفلسفية والعرفانية أمام كلمة واحدة: "أحد".

وهكذا تبدأ سورة الإخلاص من حيث تنتهي الفلسفة، وتبدأ من حيث يتوقف العقل، وتبدأ من حيث يعجز الوعي البشري عن التقدم. فهي ليست تعريفًا لله، بل نفيًا لكل تعريف، وليست وصفًا لله، بل هدمًا لكل وصف، وليست بيانًا للذات، بل قطعًا للطريق على كل من أراد أن يتكلم عن الذات. إنها ليست سورة، بل حدّ وجودي يمنع الخلق من تجاوز مقامهم، ويمنع العقل من التسلل إلى ما لا يطيق، ويمنع الروح من أن تتوهم أنها تستطيع أن تذوب في الله أو تتحد به أو تتجلى فيه.

ومن هنا نفهم أن سورة الإخلاص ليست جزءًا من القرآن، بل هي ميزان القرآن كله، وأنها ليست آيات، بل قوانين، وأنها ليست كلمات، بل حدود، وأنها ليست بيانًا، بل سيفًا. وكل من حاول أن يتجاوز هذه الحدود وقع في الشرك الفلسفي أو الشرك العرفاني أو الشرك اللاهوتي أو الشرك الوجودي. ولذلك كانت هذه السورة وحدها كافية لهدم خمسة آلاف سنة من الفلسفة، لأنها لا تناقش الفلسفة، بل تنسف بنيتها، ولا ترد على العرفان، بل تقطع جذوره، ولا تجادل المتكلمين، بل تسقط مقولاتهم، ولا تحاور اللاهوت بل تهدم أساسه.

بنية سورة التوحيد

سورة الإخلاص ليست بناءً لغويًا بل بناء وجودي، وكل كلمة فيها طبقة من طبقات الحقيقة, تبدأ بـ"قل" لتعلن أن الكلام ليس من البشر، وأن النبي ليس مفسرًا بل ناقلًا، وأن ما سيأتي ليس رأيًا بل حدًا ثم تأتي "هو" لتشير إلى الغيب المطلق الذي لا يُدرك ولا يُحاط به، غيب لا يُشار إليه إلا بضمير، لأن الاسم يحدّ، والضمير يفتح ثم يأتي "الله" ليكون الاسم الجامع الذي لا يشاركه فيه شيء، الاسم الذي لا يُشتق ولا يُزاد عليه، الاسم الذي هو هوية الذات لا صفة من صفاتها. ثم تأتي "أحد" لتكون نفيًا لكل تركيب، نفيًا لكل جهة، نفيًا لكل مرتبة، نفيًا لكل مظهر، نفيًا لكل تجلّ، نفيًا لكل كثرة، نفيًا لكل وحدة عددية، نفيًا لكل تصور بشري. ثم تأتي "الصمد" لتغلق باب التغير، وباب الحركة، وباب الانفعال، وباب التدرج، وباب الاستكمال، وباب الفيض،

وباب الصدور، وباب التجلي، وباب الحلول، وباب الاتحاد. ثم تأتي "لم يلد" لتقطع الطريق على كل تصور يجعل الله مصدرًا لشيء يخرج منه، سواء كان عقلًا أولًا أو نورًا أزليًا أو حقيقة محمدية أو وجودًا مطلقًا تتعين فيه الأشياء ثم تأتي "ولم يولد" لتقطع الطريق على كل تصور يجعل الله نتيجة لشيء قبله، سواء كان زمانًا أو وجودًا أو طاقة أو حقيقة أو عقلًا ثم تأتي ولم يكن له كفوا أحد لتغلق الباب الأخير: باب المقارنة، باب المماثلة، باب النظير، باب الشبيه، باب الندّ، باب المثل الأعلى، باب المشاركة في الحقيقة.

وبهذا البناء تصبح سورة الإخلاص نظامًا وجوديًا مغلقًا، لا يسمح لأي فلسفة أن تدخل إليه، ولا لأي عرفان أن يتسلل منه، ولا لأي لاهوت أن يقترب منه، ولا لأي عقل أن يقيس عليه. إنها السور التي تحيط بالتوحيد من كل الجهات، فلا يبقى للإنسان إلا أن يقف خارجها خاشعًا، لأن الدخول إليها ليس من شأن المخلوق.

الفصل الثاني

هدم الفلسفات الأولى منذ فجر الحضارات

لم يكن الإنسان في بداياته يعرف من الوجود إلا ما تراه عيناه وتلمسه يداه، فكان الإله عنده ظلًّا للطبيعة وصدىً للخوف، وانعكاسًا للدهشة الأولى أمام الكون, لم يكن العقل قد تهيّأ بعد ليدرك معنى الغيب، ولا كان الوعي قد نضج ليميز بين الخالق والمخلوق، فكانت الآلهة صورًا من العالم نفسه، تتبدل بتبدله، وتتحرك بحركته، وتفنى بفنائه ومن هنا بدأت أولى الأخطاء الوجودية التي ستتكرر في كل حضارة لاحقة: إسقاط صفات المخلوق على الخالق، وجعل الإله جزءًا من النظام بدل أن يكون خالق النظام.

في سومر أول حضارة مكتوبة، كان الإله سماءً أو ماءً أو هواءً، وكانت الآلهة تتصارع وتتحارب وتغضب وتنتقم، كأنها بشرٌ أكبر حجمًا وفي بابل كان الإله وظيفة: إله للحب، إله للحرب، إله للخصب، إله للموت، كأن الوجود مجموعة دوائر منفصلة، لكل دائرة ربٌّ يديرها وفي مصر القديمة كان الإله يتجسد في صورة حيوان أو ملك أو شمس، وكان ينتقل من طور إلى طور، ويولد ويموت ويبعث، كأن الإله خاضعٌ للزمن، محكومٌ بالحركة، مقيدٌ بالتحول. وفي فارس كان الإله نورًا يقابله ظلام، قوة يقابلها قوة، كأن الوجود صراع بين متكافئين وفي الهند كان الإله وجودًا مطلقًا تتكثّر مظاهره، وتتنوع صوره، وتتشكل في آلهة لا تُحصى، كأن الواحد يتشظى في الكثرة، وكأن الكثرة تعود إلى الواحد وفي الصين كان الإله قانونًا كونيًا بلا ذات، طريقًا بلا هوية، نظامًا بلا إرادة، كأن الوجود يسير بلا خالق، وكأن النظام قائم بذاته.

هذه الحضارات كلها، على اختلاف لغاتها وأساطيرها، تشترك في شيء واحد: أن الإله عندها جزء من العالم، لا خالق العالم فهو يتحرك ويتغير ويتجسد ويتحول ويغضب ويقاتل ويُهزم ويولد ويموت ويبعث ويحتاج ويكمل ويستكمل وكل هذه الصفات هي صفات المخلوق، لا صفات الخالق وكل هذه التصورات مهما بدت عميقة أو شاعرية أو رمزية، تنهار أمام كلمة واحدة من سورة الإخلاص وبمفردة ﴿أحد﴾.

فـ"أحد" ليست نفيًا للتعدد فحسب بل نفيًا لبنية التعدد، نفيًا لإمكان التعدد، نفيًا لكل تصور يجعل الذات قابلة للانقسام أو التعيّن أو التجسد أو التغير, "أحد" تهدم الإله السومري لأنه مركب من قوى، وتهدم الإله البابلي لأنه وظيفة، وتهدم الإله المصري لأنه يتجسد، وتهدم الإله الفارسي لأنه يقابل الظلام، وتهدم الإله الهندي لأنه يتكثّر، وتهدم الإله الصيني لأنه قانون بلا ذات, "أحد" ليست كلمة بل حدّ وجودي يمنع الخالق أن يكون جزءًا من سلسلة أو طرفًا في صراع، أو صورة في الطبيعة، أو مظهرًا في الوجود.

ثم تأتي كلمة ﴿الصمد﴾ لتسقط ما بقي من تلك التصورات فالصمد هو الثابت الذي لا يتغير، الكامل الذي لا يفتقر، الممتنع الذي لا يدخل في شيء ولا يدخل فيه شيء وهذه الكلمة وحدها تهدم الإله المصري الذي يولد ويموت، وتهدم الإله الهندي الذي يتجلى ويتحول، وتهدم الإله الفارسي الذي يقابل قوة أخرى، وتهدم الإله الصيني الذي يتبدل بتبدل الكون فالصمدية نفيٌ للحركة، ونفيٌ للتدرج، ونفيٌ للانفعال، ونفيٌ للظهور، ونفيٌ للخفاء، ونفيٌ لكل ما يجعل الإله جزءًا من الزمن أو خاضعًا له.

ثم تأتي ﴿لم يلد﴾ لتقطع الطريق على كل تصور يجعل الإله مصدرًا لشيء يخرج منه، سواء كان عقلًا أولًا أو نورًا أزليًا أو طاقة كونية أو روحًا كبرى. فكل حضارة جعلت الإله أصلًا لشيء ينبثق عنه، كأن الذات الإلهية مادة تتدفق أو نور يتشعب أو حقيقة تتعين. فجاءت هذه الكلمة لتقول: لا خروج من الذات، ولا انبثاق، ولا صدور، ولا فيض، ولا ولادة معنوية أو روحية أو وجودية.

ثم تأتي ﴿ولم يولد﴾ لتسقط آخر أوهام الحضارات القديمة: أن الإله نتيجة لشيء قبله، أو ابن لسماء أو أرض، أو ثمرة لزواج آلهة، أو نتاج لصراع كوني. فهذه الكلمة تهدم الأساطير كلها بضربة واحدة، لأنها تنفي أن يكون الله داخل سلسلة، أو جزءًا من نسب، أو حلقة في تاريخ.

ثم تأتي ﴿ولم يكن له كفوا أحد﴾ لتغلق الباب الأخير: باب المقارنة والمماثلة والنظير فكل حضارة قارنت بين آلهتها ووزنتها، وجعلت بعضها أقوى من بعض، وبعضها أعلى من بعض، وبعضها

أسبق من بعض, وبعضها شبيه ببعض, فجاءت هذه الكلمة لتقول: لا مقارنة، لا مماثلة، لا نظير، لا شبيه، لا ندّ، لا مثيل.

وهكذا تنهار خمسة آلاف سنة من التصورات البشرية أمام أربع آيات لا لأنها أطول، بل لأنها أصدق، ولا لأنها أعمق بل لأنها أصفى، ولا لأنها أوسع بل لأنها أشد إحكامًا, فالحضارات القديمة حاولت أن تصف الله بما تعرفه، فجاءت سورة الإخلاص لتصف الله بما لا يعرفه البشر، بل بما يعرفه الله عن نفسه

الفصل الثالث

سقوط الفلسفات الكبرى أمام حدّ التوحيد

لم تكن الفلسفة القديمة استمرارًا للأسطورة بل كانت محاولة للهروب منها, كانت محاولة الإنسان أن يخرج من ظلام الخرافة إلى نور العقل، وأن يستبدل تعدد الآلهة بوحدة المبدأ، وأن يرفع الإله من مستوى الطبيعة إلى مستوى الفكر. لكن العقل حين حاول أن يصف الله لم يخرج من قفصه، بل نقل القفص معه. فبدل أن يجعل الإله شمسًا أو نهرًا أو جبلًا، جعله عقلًا أو مبدأً أو وجودًا مطلقًا أو قانونًا كونيًا. وهكذا انتقلت الآلهة من الطبيعة إلى الذهن، لكنها بقيت آلهة بشرية، محكومة ببنية العقل نفسه، لا ببنية الحقيقة الإلهية.

في اليونان، حيث بلغت الفلسفة ذروتها، لم يكن الإله إلا صورة من صور العقل. فأفلاطون جعله "الخير الأعلى"، فكرة مجردة لا ذات لها، كأن الله مفهوم لا وجود. وأرسطو جعله "المحرّك الأول"، عقلًا يفكر في ذاته، لا يعلم العالم ولا يتصل به، كأن الله فكرة مغلقة على نفسها. والرواقيون جعلوه "النظام الكوني" قانونًا يسري في المادة، كأن الله طبيعة أخرى. والأفلاطونية المحدثة جعلته "الواحد" الذي يفيض عنه العقل ثم النفس ثم العالم، كأن الله ينبثق منه الوجود كما ينبثق الضوء من الشمس. وكل هذه التصورات مهما بدت راقية، تشترك في شيء واحد: أنها تجعل الله مبدأً لا ذاتًا، وتجعل الوجود تدرجًا لا خلقًا، وتجعل العلاقة بين الله والعالم ضرورة لا إرادة.

وفي الهند حيث الفلسفة أعمق من الأسطورة، كان الإله "براهمان" الوجود المطلق الذي تتكثّر مظاهره في آلهة لا تُحصى. فالعالم عندهم ليس مخلوقًا، بل مظهرًا، والله ليس ذاتًا، بل حقيقة تتعين في الصور. وهكذا يصبح الإنسان في جوهره إلهًا، ويصبح الوجود دائرة لا بداية لها ولا نهاية، ويصبح التعدد مجرد وهم. وهذه الفلسفة، رغم عمقها، تنتهي إلى نفي الخالق والمخلوق معًا، لأنها تجعل الوجود كله حقيقة واحدة تتجلى في صور متعددة.

وفي الصين، حيث الحكمة عملية، كان الإله "التاو" الطريق الذي يسري في الأشياء، قانونًا بلا ذات، نظامًا بلا إرادة، كأن الوجود يتحرك من تلقاء نفسه، وكأن النظام قائم بذاته، لا قائم بالله. وهكذا يصبح الإله قانونًا، لا خالقًا، ويصبح الكون حركة بلا فاعل، ونظامًا بلا منشئ.

وفي فارس، حيث الصراع محور الوجود، كان الإله نورًا يقابله ظلام، قوة يقابلها قوة، كأن الوجود معركة بين متكافئين، وكأن الله جزء من الثنائية، لا خالق الثنائية.

هذه الفلسفات كلها، على اختلاف لغاتها ومناهجها، تشترك في شيء واحد: أنها تجعل الله جزءًا من بنية العقل. فالإله عندها مفهوم، أو مبدأ، أو قانون، أو وجود مطلق، أو عقل أول، أو نور، أو طاقة. وكل هذه التصورات مهما بدت سامية، تنهار أمام كلمة واحدة من سورة الإخلاص، لا لأنها تهدمها، بل لأنها تتجاوزها.

فـ﴿أحد﴾ ليست نفيًا للتعدد فقط، بل نفيًا لبنية العقل التي تقوم على التمييز بين الواحد والكثير. فالعقل لا يفهم إلا من خلال المقابلات: واحد/كثير - علة/معلول - ظاهر/باطن - جوهر/عرض, أما "أحد" فهي نفيٌ لهذه البنية كلها لأنها ليست وحدة عددية بل وحدة تمنع العدد من أصله وهكذا تسقط الفلسفة اليونانية التي جعلت الله "واحدًا" بالمعنى العددي، وتسقط الفلسفة الهندية التي جعلت الواحد يتكثّر وتسقط الفلسفة الصينية التي جعلت الواحد قانونًا يسري في الكثرة.

ثم تأتي كلمة ﴿الصمد﴾ لتسقط ما بقي من الفلسفة فالصمد هو الثابت الذي لا يتغير، الكامل الذي لا يفتقر، الممتنع الذي لا يدخل في شيء ولا يدخل فيه شيء. وهذه الكلمة وحدها تقطع الطريق على كل فلسفة جعلت الله مبدأً أولًا يفيض عنه الوجود، لأن الفيض تغير، والتغير نقص، والنقص يناقض الصمدية. وتقطع الطريق على كل فلسفة جعلت الله وجودًا مطلقًا تتعين فيه الأشياء، لأن التعيّن تغير، والتغير تركيب، والتركيب يناقض الصمدية. وتقطع الطريق على كل فلسفة جعلت الله قانونًا كونيًا، لأن القانون لا ذات له، والصمد ذات مطلقة. وتقطع الطريق على كل فلسفة جعلت الله عقلًا، لأن العقل يفتقر إلى موضوع يفكر فيه، والصمد لا يفتقر.

ثم تأتي ﴿لم يلد﴾ لتسقط الفلسفات التي جعلت الله مصدرًا لشيء يخرج منه، سواء كان عقلًا أولًا أو وجودًا مطلقًا أو نورًا أزليًا. فكل فلسفة جعلت العالم نتيجة ضرورية للذات الإلهية، كأن الله لا يستطيع إلا أن يفيض، ولا يملك إلا أن يصدر عنه الوجود. فجاءت هذه الكلمة لتقول: لا خروج من الذات، لا انبثاق، لا صدور، لا ضرورة، لا ولادة معنوية أو وجودية.

ثم تأتي ﴿ولم يولد﴾ لتسقط الفلسفات التي جعلت الله نتيجة لشيء قبله، سواء كان وجودًا مطلقًا أو حقيقة أولى أو قانونًا أزليًا. فهذه الكلمة تنفي أن يكون الله داخل سلسلة، أو جزءًا من نظام، أو حلقة في تاريخ الوجود.

ثم تأتي ﴿ولم يكن له كفوا أحد﴾ لتسقط آخر ما بقي من الفلسفة: القياس. فالفلسفة كلها قائمة على القياس: قياس الغيب على الشهادة، وقياس الخالق على المخلوق، وقياس الذات على العقل. فجاءت هذه الكلمة لتقول: لا قياس، لا مماثلة، لا نظير، لا شبيه، لا كفء.

وهكذا تسقط الفلسفات الكبرى أمام سورة الإخلاص لا لأنها ضعيفة بل لأنها تحاول أن تصف ما لا يُوصف، وتفكر فيما لا يُفكر فيه، وتقيس ما لا يُقاس, فالعقل مهما بلغ، يبقى محصورًا داخل بنية الوجود، لا يستطيع أن يتجاوز حدوده ليصف من هو خارج الحدود, وسورة الإخلاص ليست وصفًا لله بل حدًا للعقل، تمنعه أن يتجاوز مقامه وتعيده إلى وظيفته: أن يعرف حدّه.

الفصل الرابع

سقوط تصوّرات الديانات الإبراهيمية أمام حدّ التوحيد

لم تكن الديانات الإبراهيمية في أصلها انحرافًا بل كانت نورًا نزل من السماء ثم امتدت إليه أيدي البشر فغيّرت، وبدّلت، وخلطت، وأدخلت في الوحي ما ليس منه، حتى صار الإله في وعي الأمم صورةً من صور الإنسان، لا حقيقةً من حقائق الغيب. فاليهودية جعلت الله إلهًا قوميًا، والمسيحية جعلته ثالوثًا متجسدًا، والنصرانية المبكرة جعلته أبًا وابنًا وروحًا، وكل هذه التصورات مهما حاولت أن تقترب من التوحيد، انتهت إلى تشبيه الخالق بالمخلوق، وإدخال الذات الإلهية في بنية التاريخ والزمان.

في اليهودية لم يكن الله إلهًا مطلقًا بل إلهًا لشعب بعينه، يغضب غضب البشر، ويندم ندم البشر، ويصارع كما يصارع البشر، ويأمر بالقتل كما يأمر الملوك، ويغيّر رأيه كما يغيّر الإنسان رأيه, فالإله في التوراة ليس غيبًا مطلقًا بل شخصية تاريخية، تتحرك داخل الزمن، وتدخل في صراع مع البشر، وتخضع للانفعال، وتستجيب للظروف وهكذا يصبح الله جزءًا من التاريخ، لا خالق التاريخ، وجزءًا من الصراع، لا خالق الصراع، وجزءًا من القومية، لا خالق الأمم.

وفي المسيحية بلغ الانحراف ذروته حين دخلت الفلسفة اليونانية إلى اللاهوت، فصار الله ثلاثة: أبًا، وابنًا، وروحًا. وصار الواحد ثلاثة، والثلاثة واحدًا، وصار الإله يتجسد في بشر، ويولد من امرأة، ويأكل، ويشرب، ويتألم، ويُصلب، ويموت، ثم يقوم. وهكذا انتقل الإله من مقام الغيب إلى مقام الجسد، ومن مقام الأحدية إلى مقام التعدد، ومن مقام الصمدية إلى مقام الانفعال، ومن

مقام التنزيه إلى مقام التشبيه. وصار اللاهوت سلسلة من المحاولات لتفسير ما لا يُفسَّر، وتبرير ما لا يُبرَّر، وجمع ما لا يجتمع: الإله والإنسان في ذات واحدة.

وفي النصرانية المبكرة قبل أن تتشكل الكنيسة، كان الإله يُفهم من خلال لغة الرموز: الأب هو الأصل، والابن هو الكلمة، والروح هو الحياة. لكن هذه الرموز تحولت مع الزمن إلى عقائد حرفية، وصار الرمز حقيقة، وصار المجاز لاهوتًا، وصار التشبيه عقيدة. وهكذا دخلت الذات الإلهية في بنية الإنسان، وصار الله يُرى من خلال صورة بشرية لا من خلال حقيقة غيبية.

هذه التصورات كلها، على اختلافها، تشترك في شيء واحد: أنها تجعل الله داخل التاريخ فالإله عندها يتحرك، ويتغير، ويغضب، ويرضى، ويولد، ويموت، ويظهر، ويختفي، ويتجسد، ويتدرج. وكل هذه الصفات هي صفات المخلوق، لا صفات الخالق. وكل هذه التصورات مهما حاولت أن ترفع الله، تنتهي إلى أن تُنزله، لأن كل تصور يجعل الله داخل الزمن هو تصور يجعل الله مخلوقًا.

وهنا يظهر الفرق الجوهري بين الوحي المحفوظ والوحي المحرّف فالوحي المحفوظ "القرآن" يبدأ من مقام الغيب المطلق ويعرّف الله بنفسه، لا من خلال التاريخ ولا من خلال الإنسان، ولا من خلال الرمز, أما الوحي المحرّف، فقد دخلت إليه يد البشر، فصار الإله صورة من صور الإنسان، لا حقيقة من حقائق الغيب.

وحين نقف أمام سورة الإخلاص، لا نراها تهدم هذه التصورات بل نراها تتجاوزها فـ﴿أحد﴾ ليست نفيًا للتعدد فحسب بل نفيًا لبنية الثالوث من أصلها لأنها تمنع أن يكون لله جهة أو مرتبة أو علاقة داخلية و﴿الصمد﴾ ليست نفيًا للتغير فحسب بل نفيًا للتجسد، لأن التجسد انتقال، والانتقال تغير، والتغير نقص و﴿لم يلد﴾ ليست نفيًا للولادة الجسدية فحسب بل نفيًا للولادة المعنوية، لأنها تمنع أن يكون لله ابنًا بالمعنى الروحي أو الوجودي و﴿ولم يولد﴾ ليست نفيًا للحدوث فحسب بل نفيًا للانتماء إلى سلسلة، لأنها تمنع أن يكون لله أصل أو بداية و﴿ولم يكن له كفوا أحد﴾ ليست نفيًا للمماثلة فحسب بل نفيًا للتجسد، لأن التجسد يجعل لله نظيرًا بشريًا.

وهكذا تسقط تصورات الديانات الإبراهيمية المحرّفة أمام سورة الإخلاص، لا لأنها ضعيفة بل لأنها تصف الله من داخل التاريخ، بينما سورة الإخلاص تصف الله من خارج التاريخ, وهذه هي النقطة التي لا تستطيع أي ديانة محرّفة أن تتجاوزها: أن الله في القرآن ليس جزءًا من الزمن بل خالق الزمن، وليس جزءًا من التاريخ بل خالق التاريخ، وليس جزءًا من الإنسان بل خالق الإنسان.

وبهذا ينتهي فصل الديانات الابراهيمية وقد سقطت فيه تصوراتها، لا لأنها باطلة في أصلها، بل لأنّ البشر دخلها، فاختلط فيها الوحي بالتراث، والحق بالرمز، والتنزيه بالتشبيه، حتى جاءت سورة الإخلاص لتعيد التوحيد إلى أصله الأول.

الفصل الخامس

سقوط الفلسفة الإسلامية والتصوف والعرفان أمام حدّ التوحيد

لم يكن الانحراف الذي أصاب العقل الإسلامي انحرافًا في أصل الوحي بل انحرافًا في طريقة النظر إليه, فالوحي نزل نقيًا، محكمًا، صافيًا، يعرّف الله بنفسه، ويضع حدودًا صارمة تمنع العقل من التسلل إلى مقام الذات لكن حين دخلت الفلسفة اليونانية والهندية إلى العالم الإسلامي وحين امتزجت التجربة الروحية بالخيال، وحين تحولت الإشارات إلى مقولات، والذوق إلى عقيدة، والرمز إلى حقيقة، بدأ التوحيد يتعرض لأول محاولة داخلية لتوسيعه بما لا يحتمل، أو تعميقه بما لا يجوز، أو تأويله بما لا يطيق.

فالفلاسفة المسلمون وعلى رأسهم ابن سينا جعل وجود العالم مرتبط بواجب الوجود ارتباط المعلول بعلته, والفارابي جعله مرتب على نظام من العقول المفارقة والأفلاك الصادرة عن الأول, والكندي جعله العلة الأولى, وعلم الموجودات, الواحد الحقيقي, الفلسفة الأولى, السببية الكونية, فهُم لم يقصدوا الانحراف بل أرادوا أن يثبتوا وجود الله بالعقل، وأن يبرهنوا على التوحيد بالمنطق، وأن يربطوا بين الوحي والفلسفة لكنهم حين فعلوا ذلك، أدخلوا الله في مقولات العقل، فجعلوه "واجب الوجود" وجعلوا العالم "ممكن الوجود" وجعلوا العلاقة بينهما علاقة ضرورة لا علاقة خلق, وهكذا صار الله عندهم مبدأً أولًا يفيض عنه الوجود كما يفيض النور عن الشمس، وصار العالم نتيجة طبيعية للذات الإلهية لا فعلًا إراديًا, وهذا التصور رغم دقته العقلية، ينتهي إلى نفي الصمدية، لأن الفيض تغير، والتغير نقص، والنقص لا يليق بالذات الإلهية.

ثم جاء المتصوفة وعلى رأسهم ابن عربي والسهروردي والجيلي، فانتقلوا من العقل إلى الذوق، ومن البرهان إلى الكشف، ومن المنطق إلى الشهود, أرادوا أن يصفوا قرب الله، فوقعوا في وصف الاتحاد وأرادوا أن يصفوا تجلي الله فوقعوا في وصف الحلول وأرادوا أن يصفوا حضور الله فوقعوا في وصف الفناء, وهكذا ظهرت مقولات ,وحدة الوجود, وحدة الموجود, الإنسان الكامل, الحقيقة المحمدية, امام الكون, الحق المخلوق بالحق, التجلّي الذاتي, الواحد المتكثر, وكلها مقولات تجعل الله حقيقة تتعين في الصور، أو نورًا يتجلى في المظاهر، أو وجودًا يسري في الكائنات كسريان النور في البلور, أو ذاتًا تتكشف في الإنسان وهذه التصورات مهما بدت

روحية فهي تنتهي إلى نفي الأحدية, لأنها تجعل الذات قابلة للتعيّن، والتعيّن تغير، والتغير تركيب، والتركيب يناقض الأحدية.

ثم جاء العرفاء فجمعوا بين الفلسفة والتصوف وجعلوا الله "الوجود المطلق" الذي تتعين فيه الأشياء وجعلوا العالم "مراتب الوجود" وجعلوا الإنسان "مرآة الحق"،وجعلوا الحقيقة "تجلّي الذات في الصور", وهكذا صار الله عندهم حقيقة تتدرج، ووجودًا يتكثّر، ونورًا يتشعب، وكمالًا يتنزل، وكأن الذات الإلهية مادة تتشكل، أو نور يتدرج، أو حقيقة تتسع, وهذا التصور مهما بدا عميقًا، ينتهي إلى نفي "لم يلد ولم يولد" لأن التدرج ولادة والتنزل ولادة، والتجلي ولادة، وكل ولادة خروج من الذات، والذات الإلهية لا يخرج منها شيء كثيف او لطيف ولا يدخل فيها شيء.

ثم جاء المتكلمون فحاولوا أن يثبتوا التنزيه بالعقل، فوقعوا في التشبيه من حيث لا يشعرون فجعلوا الصفات زائدة على الذات، وجعلوا الذات محمولة على الصفات، وجعلوا الصفات محمولة على الذات، وكأن الله مركب من معانٍ، أو مجموع من صفات، أو ذات تحتاج إلى ما يكمّلها وهذا التصور مهما بدا دفاعًا عن التوحيد فهو ينتهي إلى نفي "ولم يكن له كفوا أحد"، لأن الكفء ليس فقط النظير بل كل ما يجعل الذات قابلة للمقارنة ولو من جهة المعنى.

وهكذا نجد أن الانحراف الذي أصاب العقل الإسلامي لم يكن انحرافًا في أصل الوحي بل انحرافًا في طريقة النظر إليه فالفلاسفة جعلوا الله مبدأً، والمتصوفة جعلوه نورًا، والعرفاء جعلوه وجودًا، والمتكلمون جعلوه مجموع صفات وكل هؤلاء رغم اختلافهم، وقعوا في خطأ واحد: أنهم حاولوا أن يصفوا الله بما لم يصف به نفسه، وأن يدخلوا الذات الإلهية في مقولات العقل أو الذوق أو اللغة.

وحين نقف أمام سورة الإخلاص لا نراها تهدم هذه التصورات بل نراها تمنعها وترفضها فـ﴿أحد﴾ تمنع أن تكون الذات مركبة من صفات أو متدرجة في مراتب أو متجلية في صور, و﴿الصمد﴾ تمنع أن تكون الذات مصدرًا لفيض أو مبدأً لصدور أو حقيقة تتدرج و﴿لم يلد﴾ ترفض أن يكون العالم نتيجة ضرورية للذات و﴿ولم يولد﴾ ترفض أن تكون الذات نتيجة لوجود مطلق أو حقيقة أولى و﴿ولم يكن له كفوا أحد﴾ تمنع وترفض أن يكون لله نظير في الوجود، سواء كان عقلًا أولًا أو نورًا أزليًا أو إنسانًا كاملًا أو حقيقة محمدية.

وهكذا تسقط الفلسفة الإسلامية والتصوف والعرفان أمام سورة الإخلاص لا لأنها باطلة في أصلها بل لأنها تجاوزت حدّها, فالعقل وظيفته أن يفهم الخلق لا أن يصف الخالق, والذوق

وظيفته أن يرقى بالعبد لا أن يدخل الذات, واللغة وظيفتها أن تشير لا أن تحيط, والوحي وحده هو الذي يعرّف الله بنفسه، لا بما يتخيله البشر ثم يسقطه على الذات الإلهية.

وبهذا ينتهي الفصل الخامس وقد سقطت فيه كل المقولات التي حاولت أن تدخل الذات الإلهية في مقولات العقل أو الذوق أو الوجود، وبقي التوحيد كما هو: حدًّا لا يتجاوزه أحد.

الفصل السادس

الخاتمة: عظمة سورة التوحيد واستحالة الإتيان بمثلها

حين ننظر إلى تاريخ الوعي البشري كله، من أول نقش سومري إلى آخر فلسفة معاصرة، نرى أن الإنسان لم يتوقف يومًا عن محاولة تعريف الله, حاول أن يراه في الطبيعة، فجعله شمسًا ونهرًا وجبلًا, وحاول أن يراه في العقل فجعله مبدأً أولًا أو عقلًا مفكرًا أو وجودًا مطلقًا وحاول أن يراه في التاريخ فجعله أبًا وابنًا وروحًا أو إلهًا يغضب ويندم ويصارع, وحاول أن يراه في الروح، فجعله نورًا يتجلّى أو حقيقة تتعيّ، أو وجودًا يسري في الكائنات وحاول أن يراه في الإنسان، فجعله إنسانًا كاملًا أو مرآة للحق أو مظهرًا للذات, وكل هذه المحاولات مهما اختلفت، تشترك في شيء واحد: أنها محاولات بشرية محضة، محكومة بحدود العقل واللغة والخيال لا بحدود الحقيقة الإلهية.

ثم جاءت سورة الإخلاص لا لتضيف رأيًا جديدًا إلى سلسلة الآراء ولا لتقدّم تصورًا آخر ينافس التصورات بل جاءت لتنهي السلسلة كلها, جاءت لتقول للإنسان: كل ما قلته عن الله خطأ، وكل ما تخيلته عن الله وهم، وكل ما نسبته إلى الله إسقاط منك بِلا يقين, جاءت لتضع حدًا وجوديًا لا يستطيع العقل تجاوزه، حدًا يمنع الخلق من التسلل إلى مقام الخالق، ويعيد التوحيد إلى أصله الأول: الله كما عرّف نفسه لا كما تخيله البشر.

إن عظمة سورة الإخلاص لا تكمن في قصرها بل في إحكامها, ولا تكمن في ألفاظها بل في حدودها, ولا تكمن في بيانها بل في بُنيتها, فهي لا تصف الله بل تمنع وصفه, ولا تعرّف الله بل تمنع تعريفه, ولا تشرح الذات بل تغلق باب الشرح, فهي ليست سورة بل سُور محصن، تحيط بالتوحيد من كل الجهات فلا يبقى للعقل منفذًا، ولا للخيال مدخلًا، ولا للذوق طريقًا، ولا للفلسفة مجالًا ولا للعرفان مسلكًا.

فـ﴿قل﴾ حدٌّ يمنع التأويل البشري، ويجعل النبي ناقلًا لا مؤوّلًا، ويجعل الكلام كلام الله وحده و﴿هو﴾ حدٌّ يمنع الإحاطة، لأن الضمير يشير إلى غيب لا يُسمّى قبل أن يعرّف نفسه و﴿الله﴾ حدٌّ يمنع الاشتراك لأنه اسم الهوية المطلقة التي لا تُشتق ولا تُزاد ولا تُقاس و﴿أحد﴾ حدٌّ يمنع

التركيب ويمنع التعدد ويمنع التدرج ويمنع التعيّن ويمنع التجلي ويمنع كل ما يجعل الذات قابلة للانقسام أو الظهور و﴿الصمد﴾ حدٌّ يمنع التغير ويمنع الحركة، ويمنع الفيض ويمنع الصدور، ويمنع الاستكمال ويمنع كل ما يجعل الذات محتاجة أو متحولة و﴿لم يلد﴾ حدٌّ يمنع أن يكون لله أثر يخرج منه، سواء كان عقلًا أولًا أو نورًا أزليًا أو حقيقة محمدية أو وجودًا مطلقًا و﴿ولم يولد﴾ حدٌّ يمنع أن يكون لله أصل أو بداية أو جهة أو سابقة و﴿ولم يكن له كفوا أحد﴾ حدٌّ يمنع المقارنة ويمنع النظير ويمنع الشبيه ويمنع القياس ويمنع كل ما يجعل الذات قابلة للمماثلة.

وهكذا تتحول سورة الإخلاص إلى نظام وجودي مغلق لا يسمح لأي فلسفة أن تدخل إليه، ولا لأي عرفان أن يتسلل منه، ولا لأي لاهوت أن يقترب منه، ولا لأي عقل أن يقيس عليه, إنها ليست بيانًا عن الله بل حدًّا للعقل، تمنعه أن يتجاوز مقامه، وتعيده إلى وظيفته: أن يعرف الله بالله لا بغيره, فلو اجتمعت الجن والإنس على أن يأتوا بمثل هذه السورة لما استطاعوا، لا لأنهم عاجزون عن نظم أربع آيات بل لأنهم عاجزون عن إنتاج حدّ وجودي, فالبشر يستطيعون أن يكتبوا الشعر وأن يصوغوا الفلسفة وأن يبنوا اللاهوت وأن يبتكروا الأساطير لكنهم لا يستطيعون أن يضعوا حدًا جامعًا مانعًا, يمنع العقل من تجاوز ذاته، لأن العقل لا يستطيع أن يحدّ نفسه, أما السورة فهي حدٌّ قادمة من وحيّ السماء, من خارج العقل لا من داخله، حدٌّ لا يستطيع المخلوق أن يبتكره لأنه فوق طاقته وفوق لغته وفوق وعيه.

إن هذا المقال كله من أوله الى آخره, لم يكن إلا كشفًا لشيء واحد: أن كل ما قاله البشر عن الله يسقط أمام سورة الإخلاص, لا لأنها تهدمه بل لأنه لا يرقى إلى مقامها, فالتوحيد الذي جاءت به هذه السورة ليس توحيدًا فلسفيًا ولا توحيدًا عرفانيًا ولا توحيدًا كلاميًا بل هو توحيد الذات بالذات لا توحيد الصفات، وتوحيد الحقيقة لا توحيد المفهوم، وتوحيد الوجود لا توحيد اللغة, وهكذا يبقى التوحيد كما هو نورًا لا يُمسّ، وحدًّا لا يُتجاوز، وسرًّا لا يُخاض فيه، وكلامًا لا يُزاد عليه، وآيةً لا يأتي بمثلها أحد.

وَالحَمدُ للهِ رَبِّ العَالـمِين

خليل الكوفي
koofa36@gmail.com

هذه هـي أمّ الطبقات التـي هدمتها سورة التوحيد

طبقة التشبيه: الإله يشبه الإنسان، يغضب، يندم، يصارع، يتحرك، يتغير.

طبقة التمثيل: صورة من صور الطبيعة: شمس، قمر، نار، ماء، هواء، جبل.

طبقة القياس: الإله يُفهم بقياس الغيب على الشهادة: عقل يشبه العقل، وجود يشبه الوجود.

طبقة التدرّج: الإله يتدرج في مراتب: وجود أول، ثم ثانٍ، ثم ثالث، ثم عالم.

طبقة الفيض: الإله يفيض عنه الوجود كما يفيض النور عن الشمس.

طبقة التجسّد: الإله يسري في الجسد، يولد، يموت، يتألم، يتجسد في بشر.

طبقة الحلول: الإله يحلّ في الأشياء أو الأرواح أو الأشخاص.

طبقة الاتحاد: الإله يتحد بالإنسان أو يتحد الوجود بالذات.

طبقة الوجود المطلق: الإله هو الوجود نفسه، والكثرة مظاهر لهذا الوجود.

طبقة الإنسان الكامل: الإنسان مرآة الذات، أو مظهر الحق، أو تجلّي الحقيقة.

طبقة العقل الأول: الإله يخرج منه عقل أول، ثم عقل ثانٍ، ثم نفس، ثم عالم.

طبقة العقل الفعّال: الإله لا يخلق العالم مباشرة بل يفيض عنه عقلٌ أول يعمل وسيطًا بينه وبين الخلق.

طبقة التجلّي الذاتي: الذات تتجلّى في الصور وتظهر في المظاهر وتتعين في الكائنات.

لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِير